مستورد .. ولا ينبع من واقعنا .. !

د . محمد عبد الشفيع عيسى

تتناثر من فوق أعواد المنابر، ومن شرفات (البرجوازية الصغيرة)، مصطلحات وشعارات كثيرة جدا هذه الأيام في الوطن العربي عموما، وفي مصر العربية خصوصا: بعضها حق، وبعضها حق يراد به باطل، كما يقال، وبعضها الأخير باطل كله. ولن نقوم بتحليل نقدي لهذه المصطلحات والشعارات التي تناولنا طرفا منها آنفا، ولكن حسبنا أن نشير إلى عناوين سريعة، أو "رؤوس أقلام" كما يقول بعض إخوتنا في المشرق العربي.

ولنبدأ بمصطلح أو شعار (الدولة الدينية). وسوف نكون صرحاء – قدر إمكاننا على كل حال – فنقول إن هذا الشعار شعار (مستورد)..! . وهذه الكلمة الأخيرة أصبحت ممجوجة هذه الأيام، بل وأصبحت مستهجنة، من فرط ما استخدمتها الحكومات العربية والمعارضة أيضا. فالحكومات تتكلم عن (الأفكار المستوردة) و(الإرهاب المستورد) وهلم جرا. أما المعارضة فإن بعض تياراتها يكثر من الحديث عن (الغزو الفكري) و(استيراد الأفكار)، يكيد بعضها لبعض، في أجواء المناورات السياسية المحمومة (المفهومة). سوف نستخدم إذن تلك الكلمة بحذر، فنقول إن ذلك الشعار (المستورد) للدولة الدينية، قد سرى مسرى النار في الهشيم، برغم أنه (لا ينبع من واقعنا)..! وهذا التعبير الأخير أيضا غدا ممجوجا ومستهجنا من فرط استخدامه في ألاعيب السياسة العربية. فما أيسر أن يرمي فصيلٌ فصيلا بأن أفكاره (لا تنبع من واقعنا). ولكن، فلنجازف باستخدام ذلك التعبير أيضا، على أن نحاول تبريره من التاريخ. فما معنى أن نتكلم في بلادنا عن دولة دينية، بالمعنى العلمي الدقيق لهذا المصطلح، كدولة تقوم على الحكم المباشر لرجال الدين الممثلين لمؤسسة دينية (مخصوصة) تمارس الفُتْيا والسلطة في نفس الوقت، على غرار المؤسسة الكنسية لأوربا العصر الوسيط..؟

ونحن– في الوطن العربي والعالم الإسلامي جميعا – لم نعرف مثل هذه الدولة الدينية في إطار تاريخنا الممتد للحضارة العربية– الإسلامية. بل نكاد نجازف بالقول إن الأنظمة التي استندت إلى شعار (الخلافة الإسلامية) كدعامة للشرعية السياسية والإيديولوجية، لم تكن (دولا دينية) من قريب أو بعيد. وصحيح أن الخليفة العباسي، المنصور، تكلم عن أنه وأسرته العباسية يمثلون (ظل الله في الأرض). ولكن هذا لا يصلح سندا للادعاء بقيام نموذج (الدولة الدينية) في (ظل) نظام الخلافة العباسية. فقد كان بنو العباس يمارسون الحكم أناسا من الناس،

كمُلك عضوض، شأنهم شان غيرهم ممن سبقهم (الأمويون) ومن لحق بهم (الفاطميون مثلا)، دون أثر لبناء (إكليروس) أو كهنوت سياسي على الأنموذج الكنسي الأوربي في العصر الوسيط للإمبراطورية الجرمانية المقدسة، وأضرابها. فقل إذن ما شاء لك الهوى عن الادعاء الديني لأنظمة الحكم والدول المتتابعة على امتداد التاريخ العربي، والتاريخ الإسلامي؛ ولكنك لن تجد أثرا لذلك النمط المزعوم عندنا لتلك (الدولة الدينية).

ويعرف دارسو العلوم السياسية أن الباحثين في هذه العلوم يطلقون تعبير (الأنماط المثالية) Ideal Types ليدلوا بها على النماذج النظرية (الصافية) التي لاتوجد في الواقع بالضبط، ولكن تقاس بالنسبة إليها المقاربات الواقعية المختلفة ، لتسهل عملية التحليل وتيسر التصنيف والتقسيم للنظم السياسية والممارسات السياسية عموما. و(الدولة الدينية) هي أقرب إلى أن تكون (نمطا مثاليا)، من ذلك النوع : لم يوجد في الواقع بالضبط، وإن وجدت أنظمة اقتربت منه بدرجة أو أخرى. وأكثر الأنظمة التي اقتربت من هذا النمط (المثالي) هي النظام السياسي الأوربي في العصر الوسيط، والمتمحور حول البابا، حامل السيفين : للدين والدنيا، يضفي شرعيته على الملوك والإمبراطور، ويتخذ من الكنيسة موئلا لملكية الأراضي والإشراف على ما تخبئه ضمائر المؤمنين- وخاصة أثناء ما سمي (عصر التفتيش) إبان "حرب استرداد الأندلس"، للقضاء على كل ما هو مسلم أو إسلامي في هذا البلد في القرن السادس عشر.

بل قل إن حركة الإصلاح الديني الأوربي التي قادها لوثر وكالفن، للقضاء على السلطة الدينية والسياسية لمؤسسة الكنيسة- إن هذه الحركة اتخذت لها مرجعا وهاديا، على الصعيد النظري من فيلسوفنا العربي المسلم ابن رشد، وعلى الصعيد العملي، من الحياة السياسية العربية والإسلامية التي لم تجعل للفقهاء ولوظيفة الفُتيا مؤسسة حاكمة، وإنما جعلتهم بموازاة مؤسسة الحكم حينا، أو فوقها -نظريا- حينا آخر، أو أدنى منها سياسيا تارة أخرى.

لم تكن أنظمة الدول وأنظمة الحكم، في تاريخنا، قريبة من ذلك (النمط المثالي) للدولة الدينية إذن. بيد أن الدين قد لعب دورا محوريا في تاريخنا، لدرجة يمكن القول معها إن الإسلام صنع ثقافة وحضارة كاملة، وأن ذيْنك الثقافة، وتيْنك الحضارة، هما اللتان تكونت في حضيْهما الأمة العربية، من الناحية الموضوعية، وذلك قبل أن ينبثق (الشعور الذاتي) -القومي - بوجود هذه الأمة، بزمان طويل.

وإن الدور المحوري للإسلام في تكوين الأمة العربية، من المنظور الحضاري، لا يعني أن العرب كلهم مسلمون، بل العرب مسلمون ومسيحيون أيضا، تجمعهم مظلة قومية واحدة. يحتفظ المسلم بإسلامه، ويحتفظ المسيحي العربي بمسيحيته، كعلاقة بينه وبين ربه؛ وذلك لا يتناقض البتة، مع كونه عربيا صميما، بحكم وجدانه الحضاري العميق.

فماذا حدث..؟

قام بعض مثقفينا بعملية (استيراد) المفهوم الخاص بالدولة الدينية، برغم أنه (لم ينبع من واقعنا). رفعوا عقيرتهم بالتحذير من مسعى (الدولة الدينية)، فزّاعة يخيفون بها الجمهور، وربما يحرضون أرباب السلطة، ولو من طريق غير مباشر. انتزعوه من سياق التاريخ الأوربي الغربي للكفاح البرجوازي المجيد: الكفاح ضد مؤسسة الكنيسة البابوية وضد الملوك المطلقين والأباطرة، وضد طبقة الإقطاع. ولذلك اتخذت البرجوازية لثورتها المجيدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثلاثة شعارات كبرى:

١- العلمانية، في مواجهة سلطة الكنيسة دينيا وسياسيا.
٢- الليبرالية، في مواجهة سلطان الملوك والأباطرة.
٣- الدولة القومية Nation-State في مواجهة التجزئة الإقطاعية.

ونحن نستفيد من هذا الإرث (البرجوازي) الغني في ثورتنا الحضارية العربية المباركة بإذن الله؛ ولكنه ليس قيدا علينا، وليس حجرا من فوق أعناقنا. والحديث موصول.